جمال الطبيعة (١)

سلامٌ كرامَ الانام سلامْ يفوحُ شذاهُ كنشر الخزامْ
وبعد فانَّ جمالَ الطبيعة مم خيرُ جمالٍ به المرء هامْ
تسيلُ القرائحُ في وصفهِ فيجري الشيرُ ويحلو النظامْ
واني اوردتُ الكلام عليهِ بقول يناسب هذا المقامْ
فنُّوا عليَّ بستر خطائي ومن شاء صفَّق لي في الختامْ

لا يخفى عليكم ايها السادة الافاضل ما حوتهُ الطبيعة من جميل المناظر وبديع المشاهد التي يقف المفكر لديها مأخوذاً بجمالها مسحوراً بما يرى فيها من دقيق التركيب وكمال الاتقان . وكم سحرت حسناء الطبيعة عقولاً فتقتها واذكتها وهامت بها نفوسٌ فلطفتها ورقتها - فاي امرىء لا ترتاح نفسهُ وينشرح صدرهُ لرؤية جمال الطبيعة في ايام الربيع بعد ان ينقضي فصل الشتاء وتبرز الارض في اثوابها القشب ليخيَّل لهُ ان يداً غير منظورة قد مدت عصاً سحرية فكست الطبيعة تلك الملابس البديعة او كأن ازاهر الارض ورياحينها رسائل عطرية يبعث بها الينا في هذا الفصل احباؤنا الذين ثوت جسومهم في قلب الارض

انظروا اي شعور يقوم في نفس الانسان اذا صعَّد في جبلٍ شاهق نعمتهُ الثلوج البيضاء وتنطقهُ الاشجار الغيناء وتزينهُ الرياض الغناء وتتفجَّر في جوانبهِ عيون الماء ثم وقف يسرح الطرف في هذه المشاهد وفي البحر المبسط امامهُ يغسل قدمي الجبل وقد اختلطت في نظره زُرقة الماء بزرقة السماء او جلس في احدى الخمائل يتأمل مداعبة النسيم للاغصان ويصغي للاطيار بعضها يخطب على منابر الاشجار وبعضها يغني على نغمات خرير المياه الجارية على الحصباء كالدر — لا شك انهُ يقرأ عندئذٍ صفحة من ابلغ صفحات الطبيعة فتخشع نفسهُ امام سلطان هذا الجمال البديع ويزداد ولوعاً وتعلقاً بهِ . ولقد كان جان جاك روسو اذا نظر الى الحقول والرياض وهو خارج المدينة يبكي مسروراً بها وانقباضاً لما كانت تجدهُ نفسهُ من الضغط المبهم عليها امام منظرٍ عظيم سرّيّ كهذا المنظر وشلهُ مدام دي ستايل التي اتلفت بكتاباتها البليغة نابليون مقلق الارض ومزعجها فكم وقفت امام الحقول تنظر اليها

(١) خطبة القتها السيدة لبيبه دبغي فاخوري في حفلة توزيع الشهادات على التلميذات المنتهيات من المدرسة الانجيلية بالازبكية في ٢٨ دسمبر الماضي

وتبكي من غير علة ولا سبب غير انخباط سري مبهم "

او يشير بتهم السيدة كم تبسط نفسك لرؤية الورد الغض وهو يعد في الاكمام او بعد ان تفتحت حنة وتنفطة حب الغمام وكم يسرك ان تأخذي بيدك مليكة الازاهر التي اذا بلمتك وافحتها انتعشت نفسك وذهب ما عليها من صدى الاشجان واصابك من الارتياح ما لعجز عن وصفه ابلغ قلم وافصح لسان . والفرق عظيم بين زهرة كوّنتها يد الطبيعة واخرى اشتغلتها يد الصناعة فان هذه مهما تأنقت في عملها يد الانسان تبقى عليها سمة التقليد واما تلك فان اليد اللطيفة الخفية اخذت بزرتها الصغيرة وكوّرتها من الشوائب وارسلت اليها الرطوبة من اعماق الارض فسرت فيها بحكمة سماوية الى ان نبتت وظهرت على وجه الارض شجيرة تستمد ما يغذوها من التراب والماء والهواء وتزينها اوراق خضراء . ثم بدت في هذه الشجيرة زهرة جميلة اعجبت بها تلك الاوراق فسوّدتها عليها ملكة بديعة الجمال واحاطت بها خاشعة تقدم لها ضروب التكريم والاجلال . اجل انهُ مهما بذل الانسان من الجهد لكي يقلّد اعمال الطبيعة يظلّ قاصرًا عاجزًا فشتان بين منظر البحر الهياج تتلاطم امواجهُ مزبدةً وتهدر هديرًا متواصلاً ليل نهار وبين منظر بحيرة صناعية ملأناها ماء وبثثنا فيها انواع السمك لتزيدها جمالاً — انا اذا اهملنا مياه هذه البحيرة اسبوعًا واحدًا اسنت وتصاعدت منها الروائح الكريهة وربما دبّ الموت في اسماكها ايضًا واصبح النظر اليها من كاربات النفوس ومضيقات الصدور اما البحر فضلاً عما خصتهُ به الطبيعة من جمال المنظر والعظمة فانّ مياههُ التي قيل منذ الوف والوف من السنين لا تزال على نقاوتها وصفائها

اي عقل راجح يا سادتي لا يندهش من نظام الطبيعة البديع في ارسالها اشعة الشمس في ايام الحرّ على مجتمعات الماء الملح في البحار وغيرها فتتبخّر منهُ جزء كبيرٌ تخزنهُ في خزّان الجلد العظيم ثم تمطرهُ علينا ماء عذبًا نقيًّا . بعضهُ يجري على وجه الارض فتنبض الانهار وتحنّ الغدران والسواقي وبعضهُ يغور في الارض ويجري في قلبها مخترقًا طبقاتها الى حيث يتفجر ينابيع وعيونًا او تحفر الآبار فيستقي الانسان ويشرب الحيوان ويرتوي النبات ويحوّل الصحاري الموحشة الى رياض غناء

اما ابلغ صفحة في سفر الطبيعة العظيم فهي بلا شك صفحة السماء — ارفع بصرك اليها في ليلة صافية الاديم وتأمّل الاجفان في ذلك الفضاء الفسيح المرصّع بالدراري كالناس وابهت لدى رؤية هذه المصابيح التي علقتها يد الطبيعة متاثر تهدي الناس . تأمّل في تلك العوالم السابحة واعجب لسيرها على ذلك الترتيب البديع المنتظم تضبطها قوانين الجذب والدفع بحيث لا يتعدى

احداها سداه ولا يخرج عن الطريق التي رسمتها له يد الله. سرّح نظرك في المجرّة المؤلفة من ملايين لا تحصى من الشموس والنجوم فهنالك

كوائنٌ ليس يدري السرّ منها سوى من انبوءُ كافٌ ونونُ

ثم ارقب طلوع القمر وانظر ما يهيج او يسكن في نفسك من الشجون اذا امتلأت عينك منهُ بل ادهش لرؤيته وهو يتنقّل في منازله يحفّ به سكون الليل

فتصفرّ النجوم اذا تبدّى كما يصفرُّ من حسدٍ جبينُ
يسير فتختفي من جانبيهِ نوافرَ وهو مجتازٌ رزينُ
كما طلعَ الملكُ عليهِ تاجٌ فاطرقت الوجوهُ لهُ تدينُ
كأن كواكب الافلاك درٌّ تبدّى بينها حجرٌ ثمينُ

واذهل عند ما تراهُ يرسل اشعتهُ الفيضيّة الى كل جهة في الفضاء ويخلع على الارض رداءه فضيًّا خيوطهُ مما انبث عنهُ من الضياء. ولكن لا تنسوا يا سادتي ان اجمل سطور هذه الصفحة انما تقرأ عند شروق الشمس فاذا بكر محبّ الطبيعة وقرأ تلك السطور اطربتهُ معانيها الباهرة واخلبت لبّهُ ببلاغتها الساحرة — فانهُ يرى عندما تبدو تباشير الصباح ان النجوم بدأت بالانسراب فاسرع كلٌّ الى مخبإٍ في جوانب السماء واغارت جيوش النور على فيالق الظلام فدحرتها ونهضت مليكة النهار من مرقدها تنثر تبرًا على الارض وتمد اشعتها اليها مصافحةً وتحيي الخلائق بوجهها البسام فتستقبلها الطيور باناشيدها الشجية فيطوي يديهِ على صدرهِ وهو شاخص اليها مأخوذ بجمال هذا المنظر وتحدر من عينيهِ دمعة وربما ولّى وجههُ شطر البلاد التي يقيم فيها ذووهُ وانشد

اذا بزغت شمسُ الصباح فانها علامة اهدائي السلامَ فسلّموا

واذا كان من المفكرين ذوي النفوس الحساسة فلا يبعد ان يخاطب مليكة النهار بما معناه: انتِ تطلعين الآن ايتها الشمس وبطلوعكِ تتبيّن الحياة لهذه الارض. وكل حيوان فيها ونبات يستقبلكِ بشرٍ باسم كما يستقبل الطفل امهُ التي تحبهُ وتحن عليهِ. ولكن هل ذكرتِ أن بين الذين تشرقين عليهم كثيرين من الضعفاء المظلومين والفقراء البائسين وقد ثقلت الحياة عليهم فودّوا لو انكِ لا تطلعين عليهم اي تمنّوا ان تغرب شمس حياتهم قبل شروقكِ. وهل دريتِ وانتِ تقبلين الناس قبلة الصباح كم واحد قد ذبل غصن حياتهِ لغياب شمس آمالهِ

لله ما اعمّ فعلكِ فانكِ تطلعين على الصالحين والطالحين فكما تصالحين ذوي النفوس الطيبة والقلوب النقية تصالحين الذين اسودّت اكبادهم وتصلبت رئاتهم وقست قلوبهم وخبثت

ضمائرهم وذوي الشراهة واهل الطمع والظالمين والمعتدين الذين لا خلاق لهم المتخاونين على اهل الذمة والمفسدين الناعشين اغراضهم كما تنهش الافعى فريستها . اذا علم ايها الشمس الفكر غير راضية عن هؤلاء الذين اصيبوا شجىً في حلق الانسانية وقذىً في عينها ومخاً في جنبها . ولكن ماذا تصنعين الفقراء من الارض الى حدٍ يحترقون فيهِ بنارك ؟ وكيف ينجو من الهلاك معهم غيرهم من الابرياء ؟ ام تبتعدين عنها الى حدٍ يهلك فيهِ اولئك الظلمة بزمهرير البرد القارس ؟ وفي هذا ايضاً هلاك الفضلاء معهم . انني اتخذ هذا ايتها الشمس دليلاً ساطعاً على ان وراء هذا العالم عالماً آخر ثاباً فيهِ الفضيلة المتألمة في ارضنا التعيسة

وليس عجيباً ياسادتي صدور هذه الاقوال من صاحب العقل المفكر والنفس الرقيقة الشديدة الاحساس لانهُ من القوم الذين لاتلهيهم رؤية الجهات البراقة في هذا العالم عن النظر الى الجهات المظلمة فيهِ والتوجع للضعفاء البائسين وهو خاضع لما يحيط بهِ من المؤثرات فاذا احتاطت المبهجات ابتهج او رأى ما تنقبض لهُ النفس اكتأب . ولا غرابة في ذلك ان العالم بثابة بيانو ضخم والذي يوقع عليهِ هو الانسان فاذا كان فرحاً جذلاً وضع اصابعهُ على مفاتيحهِ وقر تقراً حسب ان الكون يهتز لهُ طرباً ويتهايل من نشوة الفرح اما اذا رأى ما لا يسرهُ وتولتهُ الكآبة فانهُ يعزف على ذلك البيانو عزفاً يثير الاشجان من مكامن نفسهِ ويحبب اليهِ الموت والتكفين في ظلمات رمسهِ

وما ذا عساني ان اذكر لكم ياسادتي من بدائع جمال الطبيعة وهو ظاهر في صفحة السماء وعلى وجه الغبراء والعمر كلهُ اقصر من ان يكفي للنظر في فصل واحد من فصول سفر الطبيعة الكبير والتأمل في جمالهِ او الوقوف على شيء من اسرار ما يحوي مما يقف العقل مندهشاً امام دقة تركيبهِ وكيفية تألفهِ . وكيف لايندهش ويقر بالعجز والقصور لدى رؤيتهِ "في الاجسام الحية تلك الجراثيم الصغيرة الثرجة الشفافة التي لا لون لها والتي لا تنفك متحركة تتناول ما يجاورها من المواد غير الحية فتهيئها وتصنع منها خيوطاً عصبية او شريانية او عضلية او نحو ذلك وتنسج هذه الخيوط اعصاباً وشرايين وعظاماً وعضلات فان كانت مما تكون عظماً لا يمكن ان تكون عصباً مهما استعمل لها من الوسائط . وكذا ما يكون منها ورقاً لا يمكن ان يكون ثمراً وما يكون زهراً لا يكون خشباً وقس على ذلك . هذا مع ان جراثيم الورق والزهر والثمر والعظم والشرايين والاوردة هي بحسب ما يُعلم واحدة ابداً ودائماً في كل انواع النبات والحيوان وفي كل ادوار الحياة" (١)

(١) من خطاب عنوانهُ (الله والعالم) للدكتور يعقوب صروف

هذا ومما تشوق النفس رؤيتهُ الجمال الطبيعي كما سمتهُ الخالق فالفتاة التي افرغت عليها الطبيعة حلل الجمال فوهبتها وجهاً يحاكي البدر في استدارتهِ والورد في حمرتهِ والياسمين في ناصع بياضهِ وعيناً دعجاء وقامةً هيفاء ترتاح النفس الى رؤيتها ولكنها تنفر وتنقبض اذا رأت فتاة تستعير جمالها من يد الصناعة لانها تقول

ان المليحة من كانت محاسنها من صنعة الله لا من صنعة البشر

والفرق واضح بين الشخص المطبوع على كرم النفس وجمال الاخلاق ومن يتكلف التجمل في طباعهِ تكلفاً

وقد قام في العالم فئة امتازت بالشعور اللطيف وسلامة الذوق وجعلت منها دعوة الناس وخصوصاً المتمدنين منهم الذين اكتظت بهم المدن للرجوع الى الطبيعة من حين الى آخر والتمتع بجمالها وحامل لواء هذه الفئة واكثرهم جهاداً جون رسكين ومن مبادئهِ قولهُ "ان كل جمال مصدرهُ حب الطبيعة المذواء كما خلقها الله اي بجبالها وانهارها وبحارها ونجومها ونباتها وازهارها لا الطبيعة التي شوّهها الانسان بصناعتهِ واختراعاتهِ". وهناك اناس اعملوا الفكرة في نظام الاجتماع فحكموا ان ما فيهِ من النقص والعيوب في الشرائع والاحكام المؤيدة للاقوياء والهاضمة لحقوق الضعفاء انما دخلت عليهِ لخروجهِ عن مبدإ النظام الطبيعي وصيرورتهِ نظاماً مصطنعاً

وعلى الجملة فان جمال الطبيعة فتان واسرارها مدهشة للعقل . واذا كان كتاب الشريعة الذي يقرأهُ جزء من البشر يشهد بوجود الله فسفر الطبيعة التي يقرأ صفحاتهِ كل البشر في كل يوم يبدي هذه الشهادة عينها وينطق بحكمة الخالق وعظمتهِ . قال داود الملك الشاعر العبراني العظيم "السماوات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديهِ يوم الى يوم يذيع كلاماً وليل الى ليل يبدي علماً" وقال ابن الفارض وهو من بدائع الاقوال

تراهُ ان غاب عني كلُّ جارحةٍ في كل معنى لطيف رائقٍ بهجِ
في نغمة العود والناي الرخيم اذا تألفا بين الحان من الهزجِ
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الاصائل والاصباح في البلجِ
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نورٍ من الازهار منتسجِ
وفي مساحب اذيال النسيم اذا اهدى الي سحيراً اطيب الارجِ

وقال رسكين "الطبيعة من صنع الله فمن يحبها يحب عمل الله" وقال احد[1] علماء هذا

(١) الاستاذ ابرهيم الحوراني في بيروت.

العصر ويجعل قوته مسك الختام

يا شمس كل الورى لولاك ما بزغت ... شمسٌ وما لاح في جنح الدجى قمرُ
قد سجدتك النجومُ الزهرُ شاهدةً ... بانك الله والآصال والبكرُ
والجوهرُ الفرد والاعراض قاطبةً ... والعقل والنفس والاعيان والصورُ
انت كونت ما الابصار تدركهُ ... وانت ابدعت ما لا يدركُ البصرُ

حكم العرب

من كتاب الايجاز والاعجاز للامام ابي منصور الثعالبي النيسابوري

الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون

(ابو بكر الصديق) صنائع المعروف تقي مصارع السوء . الموت آمون مما قبلهُ واشدهُ مما بعدهُ

(عمر بن الخطاب) من كتم سرَّهُ كان الخيار في يدهِ . لا تؤخر عمل يومك الى غدك . اشق الولاة من شقيت بهِ رعيتهُ

(عثمان بن عفان) يكفيك من الحاسد انهُ يغتمُّ وقت سرورك . تاجروا الله بالصدقة تربحوا

(علي بن ابي طالب) قيمة كلّ امرء ما يحسنهُ . الناس من خوف الذل في الذل . الناس اعداء لما جهلوا . استغن عمَّن شئت فانت نظيرهُ واحتج الى من شئت فانت اميرهُ واعطِ من شئت فانت اميرهُ . خير اموالك ما كفاك وخير اخوانك من آساك

(معاوية بن ابي سفيان) اولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة

(الحسن بن علي) خير المال ما وُقي بهِ العرض . العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كلّ شيء احسنهُ

(محمد بن الحنفية) من كرمت عليهِ نفسهُ هانت عليهِ الدنيا

ملوك الاسلام وامراؤهُ

(عمرو بن العاص) من كثر اصدقاؤهُ كثر غرماؤهُ . الكلام كالدواء ان اقللت منهُ نفع وان اكثرت منهُ قتل . عزَّة الغضب تؤدي الى ذلة الاعتذار